الفصل الأول

المشكلة الأخلاقية

لم نقل «المسألة الأخلاقية» بل المشكلة لأن لفظ المشكلة أبلغ في الدلالة على ما يكتنف هذه القضية (قضية الأخلاق) من إشكالات هامة، وما جرى ويجري في صددها من نقاش وممارة وتمنع وامتناع بل ومحاربة.

والملاحظ **أولاً:** أن الأخلاق ذات عناصر متعددة (يدخل فيها التصور، والفعل، والتصديق، والمرء والآخرون وما ينبغي وما لا ينبغي... الخ)، (وما نفهم وما نقرأ، ونتوقع... الخ) (وما يجوز وما لا يجوز).

ناهيك **ثانياً:** عن أن كل إنسان يفهم هذه العناصر تبعاً لزاوية رؤيته وثقافته ومجتمعه.

وثالثاً: يتدخل في الإشكال مقدار انصياع الإنسان لما يراه، أو مقدار توليه عنه، حماسته لما يؤمن به ويرغب فيه، أو يرغب عنه، أو إعراضه عن ذلك كله أو بعضه.

الخلاصة: إن في كل مشكلةٍ أخلاقية أموراً كثيرة أهمها:

- التمييز بين الخير والشر.
- الالتزام بالخير.
- تحديد مصدر الالزام.

فمن ناحية التمييز: نجد الناس يتفاوتون:

أ - فبعضهم يميز بينهما تمييز كلام: فالخير عندهم لفظ، والشر عندهم لفظ آخر، والاختلاف بينهما لفظي أو اسمي.

ب - والبعض يرون أن التمييز أمر شخصي، يختلف من فرد إلى فرد ويختلف لدى الفرد الواحد من وقت إلى آخر، فالإنسان مقياس كل الأشياء[1].

(1) هذا هو شعار السفسطائيين على لسان بروتاغوراس وهذا شعار نرفضه.

جـ ـ والبعض الآخر يميز بين الخير والشر تمييزاً واضحاً، هؤلاء يدعمون أخلاقيتهم بإيمان صريح، ومعتقدات موضوعية.

د ـ وموقف الإسلام من هذا التمييز بيّن واضح، فإذا كان الخيْر يتضمن الحسنى والإحسان والمعاملة الحسنة، وكان الشر يتضمن الإساءة والمعاملة السيئة والبعد عن الحسنى، فإن الآية الكريمة صريحة لا تحتمل أي لبس. قال تعالى: {**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**} [فصلت: 34].

ومن ناحية **الالتزام بالخير:** تقتضي الأخلاق «موقفاً» يتناسب مع القول بالتمييز وفي هذا الموقف أفعال وتصرفات، وفيه ابتعاد واستنكاف عن تصرفات أخرى، وحين تتعارض الأفعال مع الأقوال، يقع الإنسان في تناقض أخلاقي جوهري.

إن كثيراً من الناس يعرفون الخير والشر ويميزون بينهما ولكنهم لا يتقيدون بمعارفهم هذه. ولأمثال هؤلاء أتى قوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**} [الصف: 2-3].

ومن ناحية **مصدر الالزام:** يشتد الخلاف بين المفكرين الأخلاقيين، وهنا تكمن عقدة العقد في الأخلاق:

أ ـ هناك من يقول: إن الضمير مصدر الإلزام به وللضمير مذاهب شتى يصعب تحديدها: منها القول: بأن الضمير صوت الفطرة.

ومنها القول: بأن الضمير يُحصَّل ويكتسب ويختلف من فرد لآخر، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومنها إنه (مجرد شعور بآمر آلي، أو آمر مجردٍ من الشعور)...

ب ـ وهناك من يرى أن ما يسود بين الناس من أعراف وعادات، وما اتفقوا عليه واصطلحوا على تسميته بالخير الأخلاقي: هو الضمير الذي ينعكس على الفرد.

جـ ـ وآخرون يرون أن الضمير هو آمر الفعل، ولهذا الآمر مذاهب وآراء.

د ـ ومن قائل أنه آمر السعادة واللذة أو دفع الألم، أو تحصيل المصلحة، أو ضمان المنفعة وللمنفعة معان ومعان.. بعضها آني، وبعضها دائم، بعضها حالي، وبعضها مستقبلي، بعضها فردي، وبعضها جمعي.. الخ.

هـ ـ ومن قائل أنه الواجب، ويتخذ الواجب مقولة للعقل العملي، ويراه آمراً مطلقاً.

و ـ وفي الإسلام يتفق المسلمون على أن مصدر الإلزام آمران جوهريان:

1- ما أمرهم به الله[1]. وما يتجه لهم من تأييد وعون {**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**} [إبراهيم: 27].

2- ما قامت عليه الفطرة: {**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**} [الروم: 30]، {**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**} [محمد: 17].

% % %

(1) وسنرى فيما بعد أن أوامر الله تعالى في القرآن تسلك سبيل الحكمة والشرح، والإقناع اللين، فيقدم النصح لقوم يعقلون، ولقوم يذّكرون، أو بوصفهم من أولي الألباب، ويحثهم على أن يحكموا عقولهم فيما حولهم، وينظروا ببصائرهم وأبصارهم. أما النصوص التي نقرؤها في التوراة الحالية كما هي واردة فيها، فإنها تحمل طابع الآمر الصارم وأنها فقط صادرة عن الرب: (أنا الرب الهكم إذا سرتم حسب أوامري، إذا حافظتم على ما أطلب) يراجع هنا: (سفر الخروج ـ وسفر الأخبار ـ وسفر التثنية).